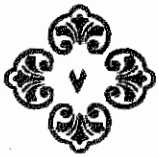

سلسلة فرسان الإسلام

٧

# طارق بن زياد

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

طارق بن زياد.- الرياض.

٥٣ ص، ١٧X ٢٢ سم - ( سلسلة فرسان الإسلام؛٧ )

ردمك: x - ٩٣٠ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- طارق بن زياد، ت ١٠٢هـ ٢- الفتوحات الإسلامية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣,٠٣٥ ٢٢/٠٩٦٤

ردمك: x - ٩٣٠ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٤

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الأول
## تاريخ مشرق منذ الصغر

### رسالة الإسلام السامية:

عَلَّم الرسول ﷺ صحابته - رضوان الله عليهم - أن رسالة الإسلام ما جاءت من أجل المقيمين في شبه الجزيرة العربية وحدها، فأدركوا أن النور الذي أنعم الله به عليهم حينما أرسل رسوله ﷺ بتعاليم الإسلام ليس خاصًا بهم، بل هو إلى البشرية جمعاء في كل زمان ومكان؛ لذلك كان على الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - أن يخرجوا بهذا النور إلى العالم كُلِّه.

كان العالم في ذلك الوقت في ظلام شديد، فلقد تحكم فيه الذين لا يعدلون، ولا يحرصون إلا على شهواتهم من احتفاظ بمال وفير، وإنفاق على الملذات.

وللخروج بجموع الناس من هذا الظلم الواضح شرع الإسلام الدعوة إلى الله، فعاش الرسول ﷺ يدعو أهل مكة والمدينة؛ والقبائل والبلدان المجاورة في شبه الجزيرة العربية، وكان على الصحابة الكرام بعد وفاة الرسول ﷺ أن يكملوا المسيرة.

obeikandl.com

راح المسلمون الأوائل يخرجون في سبيل الله، محققين فريضة الجهاد، وراجين من الله أن يكون فتح البلدان التي تجاور شبه الجزيرة العربية على أيديهم.

**أمد وتطلع:**

كان المسلمون الأوائل حينما يخرجون على أتم الاستعداد لجميع النتائج، لم تكن الحرب هي غرضهم، ولكنهم علموا أن ملوك الأرض من قياصرة الروم وأكاسرة فارس لم يكونوا ليدعوهم وشأنهم في إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، لذلك قامت الحروب وأنزل الله نصره على جنده المسلمين لإخلاصهم له في نشر دينه، حقق الله النصر لهم في بلاد الشام، وفي بيت المقدس، وكان أحد الأبطال المسلمين العظام هو: عمرو بن العاص الذي تطلع إلى ما هو أكثر، فأشار على الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر، وتردد الخليفة الحريص على أمر دينه في البداية، حتى إنه أمر عمرو بن العاص القائد بأن يسير نحو مصر ولكن عليه أن يتراجع إن أرسل إليه رسولاً يأمره بالعودة، ورغم وصول الرسول فعلاً إلا أن عمراً المسلم تصرف ودخل أرض مصر أولاً، وحقق الله على يده النصر، ولم يكتف بذلك بل لأنه المسلم الذي تمتلئ نفسه بحب الخير للناس جميعًا وقف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ذات صباح بعدما تحقق له فتح مصر ينظر إلى

أمواجه التي تضرب بعضها بعضًا في قوة وأخذ يفكر بعمق، ولم يكن إلى جواره في هذه اللحظة سوى أحد قواده المتميزين: عقبة بن نافع الفهري، الذي أطاع أمر ابن العاص حينما أمره بالمسير فوراً إلى برقة – وهي التي تقع ضمن حدود دولة ليبيا الآن – للاطمئنان على أحوال أهلها، فإن كانوا في ضيق أو شدة ويريدون مساعدة المسلمين في تخليصهم سار إليهم عمرو بقواته فأنقذهم.

**مهمة ناجحة:**

وبالفعل أدى عقبة المهمة على خير وجه وأخبر عمراً بأن زعماء القبائل ينتظرون مقدمه بفارغ الصبر؛ لأنهم مَلُّوا ظلم الروم لهم، فهؤلاء الغرباء على بلادهم قد كلفوهم ما لا يطيقون، فهم يأخذون منهم ضرائب باهظة تعد أكثر مما يكسبونه من أجر، وكذلك فإن الروم لا يحافظون على أرواح أهل البلد؛ من هنا أحس البربر بالقهر وساعدوا عمراً في حربه ضد عدوهما الأوحد: الروم الظلمة..

بعدها توالت مهمات عقبة بن نافع في برقة وعلى الرغم من أنه كان تحت قيادة عمرو، إلا أنه سار بنفسه إلى الروم في فزان وطرابلس وغيرهما من بلاد كان الروم يحكمونها، وحينما أحس عقبة ببعد مركز القيادة في مصر

حيث الاستقرار، فكر في إنشاء مركز قيادة، فانشأ مدينة كبيرة وسماها القيروان، ومن هنا بدأت قصة بطل جديد من أبطال المسلمين.

**الميلاد:**

وُلِدَ طارق بن زياد في إحدى مدن المغرب العربي، وهو من إحدى القبائل المحيطة بمدينة القيروان التي كانت جديدة في ذلك الوقت، عام ( ٥٠ هـ)، وربما كان طارق بن زياد يذهب إلى المدينة وهو صغير، أو ربما كان يقيم فيها إذ إن كتاب التاريخ يرجحون ذلك، أما نسبه فهو طارق بن زياد بن عبدالله، وهذا الاسم وإن كان عربيًا إلا أنه من قبائل البربر، وقد أسلم والده أو جده على اختلاف في الروايات، وبذلك تلقى طارق الصغير الإسلام على يد أحدهما.

**بطولة مبكرة:**

عرف طارق بن زياد بالفروسية والبطولة والإقدام في حداثته وشبابه، لذلك حرص زهير بن قيس البلوي والي بلاد المغرب بعد عقبة بن نافع على أن يضمه إلى جيشه.

وترقى طارق حتى تولى العديد من درجات القيادة، والمناصب العسكرية، وعندما استشهد القائد المسلم زهير بن قيس البلوي تولى طارق حكم برقة، وصار أميراً لها عام ( ٧٩هـ).

## قيادة جديدة:

وتولى موسى بن نصير القائد المسلم أمر «إفريقية» وهو الاسم الذي كان يطلق في ذلك الوقت على تونس وبعض البلاد التي تجاورها، وتمتد حتى ساحل المحيط الأطلسي، وكانت أولى مهمات موسى بن نصير. وإنجازاته وأخطرها هي إكمال نشر نور الله في بعض بلاد إفريقية.

بدأ القائد موسى بن نصير عملية التطهير الشاملة، وبدأ يعتمد على بعض قواده في تنفيذ مهمته الجديدة، وكان من بينهم طارق بن زياد الذي كلفه بقيادة المجموعات القتالية التي كانت تعرف باسم كتائب من قبائل: كتامة، وزناتة، وهوارة والتي كان عدد فرسانها اثني عشر مقاتلاً، وقد خصص لها موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من المسلمين العرب يعلمونهم القرآن، وتعاليم الإسلام.

## ولاية طنجة:

كانت كفاءة طارق بن زياد واضحة في معرفته الشديدة بالعناصر الصالحة والجنود المخلصين من البربر الذين أسلموا وحسُنَ إسلامهم، بل كان طارق يستطيع أن يأتي بغيرهم من أهل القبائل، ويدخلهم في الدين الإسلامي وهذا من أسباب تقدمه على عدد من القادة العظام في جيش موسى بن

نصير مثل: زرعة بن أبي مدرك، وعياش بن أخيك، وطريف بن مالك، والمغيرة بن أبي بردة، وغيرهم ممن كانت أعمالهم العسكرية تعطيهم الحق في هذه المكانة، وبخاصة عندما يكون ابن نصير قائدهم جميعًا منشغلاً بمطاردة المشركين والذين يعبدون الأوثان، فينبغي أن يولي من القادة لا الذي يثق فيه فقط، بل والذي يمتاز بما تمتاز به نفسه من حسن قيادة، وشجاعة، وبعد نظر، وهكذا اختار ابن نصير ابن زياد الذي كان يقيم مع زوجه أم حكيم في مدينة اسمها تلمسان، وهي تقع على حدود طنجة الشرقية، وقيل: إنه كان حاكمها، وأن ابن نصير أوصاه بحسن معاملة أهل طنجة وسبتة حتى يتم فتحهما، فما إن تمَّ هذا حتى عين ابن نصير ابنه مروان حاكمًا عليها، ولكنه عاد فعزله، وذلك بعد أن تأكد أن ظروف طنجة وما يحيط بها من مصاعب لا تناسبه، وبعد أن تعب مروان وأصحابه اختار طارق بن زياد الذي استطاع الحفاظ عليها، وهو شيء يحسب له، والذي ساعده فيما بعد على أن يأخذ دورًا خطيرًا في حركة الفتوحات الإسلامية.

**ثقافة طارق بن زياد:**

نجد في كتب المؤرخين القديمة كلمات أدبية راقية تنسب إلى بطلنا العظيم «طارق بن زياد» وربما كانت قِصر المدة التي مكثها طارق في بلاد المغرب كوالٍ واستعداده للدخول في معارك أخرى عظيمة هي التي قللت

من تلك الكلمات التي وصلت إلينا، وتدل على ثقافة واسعة، ومعرفة جيدة باللغة العربية، والواضح أن ابن زياد كان يمثل عبقرية في المجال الحربي، ويمتلك قدرة شعرية، وثقافية في اللغة والأدب ساعدته على أن يتناول موضوع الجهاد والشجاعة والإخلاص للإسلام، فقال هذه الأبيات الشعرية..

من شعر طارق بن زياد:

ركبنا سفينًا بالمجاز مقيرًا ... عسى الله منا قد اشترى

نفوسًا وأموالاً وأهلاً بجنة ... إذا ما اشتهينا فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا ... إذ نحن أدركنا الذي كان أجدرا

كان طارق بن زياد أحد المسلمين العظام الذين أنعم الله عليهم بمواهب كثيرة وادخر لهم دورًا عظيمًا يناسب نفوسهم العالية، وهممهم القوية، لقد فتح المسلمون بلاد فارس والروم، ولكن هناك بلاد أخرى بعد بلاد الروم، بلاد تعاني من الظلم، والظلام وهي تريد، وتتعطش إلى نور الله وهديه كي ينتشر فيها، هذه البلاد يفصلها عن المسلمين مضيق صغير على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فهل يمنع هذا طارق بن زياد من أن يصل إليها؟.

سؤال تجيب عنه الصفحات التالية.

obeikandl.com

# الفصل الثاني
# ابن زياد يعبر المضيق

**أمل قديم:**

كانت البلاد التي يفصلها البحر الأبيض المتوسط عن المسلمين تسمى بـ (أسبانيا) وما زالت، وفي الحقيقة لم يكن طارق بن زياد أول من تطلع إلى فتحها، ونشر الإسلام فيها، ولكن فكر في الأمر من قبل عقبة بن نافع، وحينما التقى مع يليان الغماري الذي كان يحكم طنجة وأحسن استقبال المسلمين حينما جاؤوها فاتحين ناقشه عقبة فيما عزم عليه، وهو ترك فتح بقية بلاد إفريقية، والانتقال لفتح أسبانيا، وكانت نصيحة يليان لعقبة ألاَّ يفعل، وبرر نصيحته بأن عقبة يعرف جيداً أطباع أهالي إفريقية، وتعود على محاربتهم منذ فترة، أما «القوط» سكان أسبانيا فإنه لا يعرفهم، زيادة على أنهم أشدّاء فرضت حياتهم القاسية عليهم القوة، فهم هاربون من أوربا، يمثلون المشردين الذين يصعب قتالهم، وبالفعل أتم عقبة فتوحاته في إفريقية.

**ضعف داخلي:**

كانت أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين الذين دخلوها لأول مرة عام

(٤١٤م)، واحتلوا شمال شرق البلاد بعد أن كانت مقاطعة رومانية، واحتفظوا بها في ظل ظروف سياسية معينة، ولكن البلاد لم تشهد توحداً حقيقياً، لأن القوط كانوا يؤمنون بالمذهب الأريوسي الذي كان يعتبر منشقاً عن المذهب الكاثوليكي، وفي عام (٥٨٩هـ) تغيَّر الحال إذ دخل الملك وزعماء القوط في المذهب نفسه الذي يؤمن به أهل البلاد، وبذلك تكونت دولة قوية كانت تضم بعض البلاد الواقعة في جنوب فرنسا إليها، غير أن وجود الغنى الشديد والمال الوفير في أيدي الملك وحاشيته والنبلاء جعلهم يعيشون حياة الترف وتنشأ النزاعات بينهم على الحكم والسلطة، أما العبيد الذين كانوا يزرعون الأرض ويقومون على العناية بها فإن هؤلاء كانوا يواجهون مشاكل شديدة الصعوبة، إذ كانوا يعيشون في حالة من الفقر الشديد، بينما يرون طبقة أخرى تنعم بكل المتع، بل إن الأحرار من أهل أسبانيا كانوا يشعرون بالغيظ الشديد من حكامهم.

لهذا فإن هذه الطبقة كانت كمثل كثير من البلدان مثل أهل مصر، وأهل برقة وغيرها، كانوا يرون في المسلمين المخلِّص لهم من الضغط الشديد، والمظالم الدائمة التي كانوا يعيشون فيها.

هذا كله بالإضافة إلى ضعف الجيش، فالعقل والمنطق يحتمان أن كل من يستطيع حمل السلاح فإن عليه أن يستجيب للملك للدفاع عن البلد

عندما يحتاجه، ولكن كان من القوانين الغريبة المنصوص عليها في أسبانيا آنذاك أنه ينبغي أن يكون الملك عارفًا بكل الذين سيشتركون معه في القتال من الرجال مهما كان عددهم، وكان ذلك مستحيلاً على أرض الواقع، وقد أدى هذا القانون عمليًّا إلى عدم التزام الكثيرين بنظام الجيش؛ خاصة أولئك الذين لا يعرفهم الملك.

**الإعداد لفتح الأندلس:**

كانت فكرة فتح أسبانيا ونشر دين الله بها تنمو وتزداد في نفس القائد المسلم طارق بن زياد، وفي الوقت نفسه، كان هناك صراع جديد يشتد في هذه البلاد، ذلك أن أسبانيا كانت تحت حكم ملك اسمه (غيطشة)، أراد «غيطشة» لابنه (وقلة) أن يخلفه في الحكم، ولكن (وقلة) لم يرد أن يحكم البلاد بنفسه وحاول بشتى السبل أن يدفع بابنه هو إلى حكم البلاد.. لم ترق هذه الفكرة للنبلاء، ومن ثم عينوا رجلاً آخر منهم اسمه (لوذريق) ليكون ملكًا لأسبانيا بعد موت غيطشة.. لم يقبل (وقلة) هذا الوضع واضطر إلى أن يستقل بحكم الشمال الشرقي من البلاد، وهكذا حمي النزاع بين أهل غيطشة المتوفى، وابن ابنه الذي يصر على أن يستمر في الحكم، من هذه الحكاية المتشابكة رغم أنها تجري في نطاق أسرة واحدة يتضح مدى تهافت هؤلاء على الحكم، مهما كان الثمن، وقد كان السبب

رهيبًا إذ اندفعت البلاد كلها في حرب شديدة بين الأهالي، ولم يكن هذا كافيًا لأن يتراجع أحد الطرفين عن قراره.

وثارت في نفس يوليان الذي كان يحكم سبتة في ذلك الوقت فكرة هي: لماذا لا يخلص أسبانيا التي يعرف بعض حكامها جيداً، وبخاصة أهل غيطشة الذين يرون لأنفسهم حقًا في الحكم، وقد حُرِموا منه في هذا الصراع الطاحن، أحس طارق بكل ما يدور في ذهن يوليان لقرب سبتة من طنجة التي كان طارق يحكمها، وكانت براعته الشديدة في أنه لم يسرع بإخبار يوليان، ولم يفاتحه في الأمر وإنما انتظر.

كانت عيون طارق بن زياد وجواسيسه موزعة في كل مكان من سبتة، لذلك فقد كانت الأخبار تأتيه أولاً بأول، وكانت الخطوة العملية التي اتخذها طارق هي زيادة ضغطه على مدينة سبتة لكي يضمن جهة المغرب، لا ليدخلها ولكن لهدف في نفسه، وبالفعل تحقق لابن زياد العبقري لا في مجال الحرب فقط، ولكن في مجال النفس الحربي الذي يستوجب على القائد التخطيط للمعركة حتى قبل أن تبدأ، ولم يكن ابن زياد يفكر للمعركة فقط، بل يتجهز لظروفها أيضًا.

**تفكير صحيح:**

رأى طارق أن يكسب يوليان، وقد كان طارق رجلاً سياسيًّا بعيد النظر، فاستمع إلى كلماته جيداً، واستطاع طارق أن يعمق صداقته مع يوليان حتى إنهما تهاديا، ورأى طارق أن يستفيد منه فيما هو أبعد وأعمق من سبتة المدينة التي يحكمها يوليان ويريد أن يصرف نظر القائد المسلم عنها، وهكذا اتفق القائدان في وقت واحد في الرأي، وأخذها طارق فرصة لخدمة دينه، فيوليان يريد أن يصرف نظره عن سبتة التي يحكمها هو، وهو يعلم أن أهل غيطشة في شدة يريدون مَنْ يخلصهم منها، انتهز طارق فرصة كل هذا، وفي الوقت نفسه كان ذهنه مشغولاً بأمور أخرى بدأت حينما عرض عليه يوليان أن يتعاون في فتح الأندلس.

**عرض الأمر:**

ورأى طارق أنه يجب على يوليان أن يكمل دوره بأن يجعل آل غيطشة يتعاونون مع المسلمين، ولكن كان لابد أن يتأكد في البداية من صدق نوايا يوليان؛ فابن زياد يريد أن يتأكد من الأمر أمام قائده المباشر موسى بن نصير، وليطمئنه إلى عداوة يوليان لحاكم الأندلس الذي يعادي آل غيطشه، فقال طارق ليوليان:

لا أطمئن إليك حتى تبعث إليَّ برهينة.

أما عن طبيعة الرهينة فإن يوليان قد أثبت عمليًّا حسن نيته تجاه المسلمين، وحطم الشكوك والظنون التي كانت تحوم حوله، فقام بجمع مجموعة من أصحابه عام (٩٠هـ)، ودخل بهم في مركبين في ساحل الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، فأغار، وأخذ أسرى وقضى هناك أيامًا ثم عاد بالذين معه في سلام، وانتشر الخبر بين المسلمين فاطمأنوا إليه.

وهكذا لم يتصل ابن زياد بموسى بن نصير ليخبره بالأمر قبل أن يطمئن تمامًا إلى يوليان، فالأمر ليس طموحًا فقط، وإنما سوف يتبع هذا الاتفاق معارك على أرض الواقع، وربما ضاعت في هذه المعارك أموال للمسلمين، وقبلها ربما استشهد عدد كبير منهم، فليس أقل من أن يتأكد طارق من أموره تمام التأكد قبل أن يقدم على تصرف عملي.

لم يكن المسلمون جميعًا بداية من الخليفة مروان بن عبدالملك وحتى موسى بن نصير، وطارق بن زياد وأصغر جندي فيهم لم يدر ببالهم في يوم أن تدخل الجيوش الإسلامية أرض الأندلس بتلك الخطط البارعة الشديدة الروعة، ولعل الخوف الشديد، والحذر، والدقة في اتخاذ القرارات هو الذي أعان الجميع على ما وصلوا إليه.

أرسل موسى بن نصير إلى الخليفة يخبره، فرد الأخير عليه بأن قال له:

خضها بالسرايا حتى تختبرها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.

ورغم أن المسلمين كانوا قد دخلوا في حروب في ذلك البحر، من مثل ذات الصواري عام (٣٤هـ) ضد الروم، إلا أن عبور البحر الأبيض المتوسط لملاقاة العدو لم يكن بالأمر السهل عند الخليفة، وعندما علم طارق برده أشار على ابن نصير بأن يرد عليه، ويعلمه بحقيقة البحر الذي ستدخل فيه جيوش المسلمين في طريقها إلى الأندلس بأنه:

ليس ببحر، وإنما هو خليج يصف ضفة ما خلفه للناظر.

فأرسل ابن نصير بالكلمات السابقة ردًّا على الخليفة يعلمه فيها بأن البحر المتوسط ليس بالاتساع، ولا بالشدة التي في ذهنه، وإنما هو زقاق ضيق حتى إنه يُري الواقف أمامه ما خلفه، وبذلك يمكن عبوره بمنتهى السهولة.

**ردٌّ حكيم:**

ولكن الخليفة المسؤول عن أرواح ودماء المسلمين – الخليفة الأموي الذي يتفهم دوافع طارق، وموسى بن نصير للفتح، ولكنه يشعر بالمسؤولية العظيمة كاملة – يرسل إليهما مرة أخرى قائلاً:

«وإن كان فاختبره بالسرايا».

## حملة استطلاعية:

وهكذا قرر القائدان طارق بن زياد، ورئيسه المباشر موسى بن نصير إسناد مهمة الحملة الاستطلاعية التي أرادها الخليفة إلى أحد القادة المسلمين وبذلك يمهدون لجميع الجند بالعبور إلى هذه البلاد، واختارا واحداً من كبار القادة المسلمين كان اسمه: طريف بن مالك المعافري، وكان رجلاً حازمًا، كما كان بارعًا في فنون الحرب والقتال، يستحق أن يتحمل دوراً عظيمًا في فتح المسلمين لبلاد الأندلس.

واجتمع القادة المسلمون للتشاور، فاتفقوا أن تبدأ مهمة طريف في العبور من ناحية سبتة، أما لماذا من سبتة بالذات؟ فيبدو أن ذلك راجع إلى حكمة ابن زياد، ودوره في الفتوحات، فقد أراد أن يتأكد مرة أخرى من صدق يليان، ومن مساعدته للمسلمين بالرجال الذين يدلونهم على الطريق، وأيضًا وثوقه من صدق آل غيطشة الذين دخلوا في شبه اتفاق معهم، وكان عدد الجند الذين سار طريف بهم خمسمائة جندي، منهم أربعمائة من الجنود المشاة، ومائة من الفرسان، وقد نزل بهم في جزيرة صغيرة تُسمى «لاس بالوماس» وقد سميت الجزيرة فيما بعد باسمه «جزيرة طريف».

**نجاح الحملة:**

ودخلت هذه الحملة بقيادة طريف المسلم الشجاع الذي أحسن ابن نصير اختياره، دخلت خلال الجزيرة الخضراء، فقوبلت بالإكرام، والترحيب ثم عادت في أمن وسلام.

وسواء أكان دخول طريف من طنجة أو من سبتة، فإن ابن زياد أعلم جنوده بأن الطريق ممهد أمامهم، وعليهم أن يمروا ولكن على الذي يمر منهم أن يبقى ساكنًا حتى لا ينتبه أهالي الأندلس إليهم، وحتى يتم نقل الجيش الإسلامي كله، أما عن طارق نفسه فإنه لم يعبر إلا في المركبة الأخيرة، بعد أن اطمأن إلى وصول جميع جنده بسلام وأمان، وأخيراً فإن هناك رواية تقول بأن المسلمين قد انتقلوا في مراكب التجار حتى لا يشك فيهم أحد، وعلى أي حال فقد تم انتقالهم بنجاح وعبرت جنود طارق بن زياد المضيق الذي تخوف الخليفة منه، وأمر بأن يطمئن المسلمون إليه، وقد اطمأنوا ثم عبروا بنجاح لتبدأ صفحة أخرى عظيمة من صفحات البطولات الإسلامية.

obeikandl.com

# الفصل الثالث

## من نجاح إلى آخر

**صعوبة العبور:**

كانت عملية التخطيط لعبور سبعة آلاف جندي مسلم بالخيل عملية صعبة إن حكيناها في سطور، فإنها تطلبت في الواقع تفكيراً طويلاً، وتنفيذاً على أرض الواقع شديد الدقة؛ لأن أقل خطأ سوف يكشف الغرض الذي انتقلت من أجله جنود المسلمين، وسوف يهدد حياتهم، زيادة على أنه لن يتحقق الهدف المرجو، وكان على ابن زياد أن ينقل الجنود في فترة بسيطة لا تتعدى أياماً قليلة، وهذا هو الذي زاد من صعوبة الأمر، ولو أن طارقاً فكر في زيادة أيام العبور لأدى هذا إلى كشف أمره، وهكذا فلو لاحظ أحد كثرة المسافرين، وبخاصة وأن معهم الخيل، وفي أيام معدودة، وهم جميعاً من المسلمين، لو لاحظ أحد لفشلت المهمة، وهكذا كان على القائد الفذ أن يتصرف بحكمة شديدة، وفي الوقت نفسه بحزم شديد يحد من أي حماس للجنود المسلمين قد يفشل خطته.

**جبل طارق:**

استعان طارق بسفن كانت تنتجها دار صناعة السفن في تونس، وكانت

خطة النزول تقضي بأن يتجمع الجنود عند البقعة الصخرية المواجهة لمدينة سبتة، وبالتحديد عند جبل كالبي، وهكذا راحت جموع العساكر التي عبرت البحر تتابع في النزول أسفل الجبل، ولم يكتف ابن زياد القائد المحنك بنجاح خطة العبور، ولم تشغله الفرحة عن أن يأخذ الخطوة التالية الضرورية، إذ أسرع فأنشأ معسكرًا، ومكانًا لرسو السفن، وكان المعسكر بمنزلة القاعدة العسكرية الدائمة للمسلمين في أرض الأندلس، بهدف الانطلاق منها إلى داخل البلاد، وكان لنجاح العبور، وعمل هذه القاعدة كبير الأثر في نجاح المهمة، مهمة الوصول، والتمهيد للانطلاق والجهاد وبنجاح أيضًا، وهما خطوتان تدلان على عبقرية فريدة لقائد لا تشغله خطوة مهما كانت مهمة وخطيرة عن اتخاذ خطوة أخرى أكثر أهمية وخطورة، فهو أشرف على عبور الجنود، وكان آخر مَنْ عبروا، في الوقت نفسه هو الذي اختار بعناية مكانًا لتجمع جنوده أيضًا لوصول المؤن من سلاح وإمدادات من جنود، خطط طارق للخطوتين بنجاح باهر، وفي زمن قياسي قليل، ولعل إطلاق اسمه على المضيق المكان الضيق الذي يطل على البحر المتوسط ويفصل بلاد المسلمين عن شبه جزيرة أيبريا حيث تقع الأندلس، والذي عبرت منه جنود المسلمين إلى الأندلس من مدينة سبتة – لعل إطلاق اسمه على المضيق – فصار مضيق جبل طارق حتى اليوم –

اعتراف شديد الأهمية لا لنجاح طارق فحسب، بل لأنه فعل شيئًا نادرًا ما زال العالم يعجب به حتى اليوم.

**تأمين المعسكر:**

لم يكتف ابن زياد بما فعله، وإنما راح يفكر في خطوة ثالثة، وراحت الأفكار تدور في ذهنه تحدثه عن إمكانية حدوث خطر محتمل، فماذا لو انكشف أمر المعسكر وجاء العدو لمهاجمته؟ هنا فكر في شيء ثالث يؤمن به أرواح المسلمين، وعلى الفور أنشأ سوراً حول المعسكر أسماه، «سور العرب» وظل الاسم باقيًا حتى الآن.

ثم إنه اختار مجموعة من الجند الذين يثق فيهم وأمرهم بأن يقوموا بحماية المعسكر وحراسته، فهو يعلم أن الجند الذين فيه سوف يغيرون تاريخ الأندلس كله.

**الطاعة:**

هذا القائد العبقري صاحب الموهبة التي رأيناها حتى الآن في التخطيط للمعركة، وحساب أمر كُلِّ جزء فيها مهما كان، هذا القائد حينما يسأله أولاد غيطشة الذين اتفقوا معه على أن يكونوا هم ويليان الموالين له، وجنده والموالين لهما على الطريق، لمعرفتهم بالأندلس، وعدم معرفة المسلمين

بطرقها، هؤلاء يسألون طارقًا ذات مرة، وهم يرون مهارته الشديدة، هذا القائد العبقري يُسأل:

«هل أنت أمير نفسك، أم على رأسك أمير؟..»

«بلى على رأسي أمير، وعلى الأمير أمير».

إنه الإسلام، نظام، لا أن يفعل كل قائد ما يراه، ويسير وراءه، إنه طارق القائد المطيع الذي يعرف أنه لا ينتظر الجزاء من أحد من البشر، إنما ينتظره من الله تعالى، لذا لا يضيره أن يقول إنه يأخذ أوامره من أمير، من موسى بن نصير، وموسى بن نصير لا بد له أن يستشير الخليفة، وهم جميعًا يرجون الثواب من الله، وليس فيهم مَنْ يظلم، أو يستبد بالرأي، فأمرهم شورى بينهم، كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم.

**بداية المعارك:**

لم يمض وقت طويل حتى دخل جيش المسلمين في معركة مع فرقة من القوط – وهم الذين احتلوا أسبانيا منذ القرن الخامس الميلادي – وكان للفرقة قائد اسمه بنج، وكان من مهماته أن يمر بمناطق معينة من البلاد كي يطمئن على سلامتها، فَقُدِّرَ له وهو يمر بفرقته أن يرى معسكر المسلمين وعلى الفور دخل في معركة معهم، ولم يكن يتخيل نتيجتها، إذ إن تقسيم

المسلمين إلى مجموعات وكتائب في نظام شديد جعل عدوهم لا يستطيع الثبات أمامهم لوقت طويل.

وكان من نتيجة هذه المعركة أن أحداً من فرقة بنج لم ينج سوى جندي واحد اسمه «بلياس» الذي أسرع إلى لوذريق في أقصى الشمال عند بلدة تُسمى «بنبلونة» وأخبره بما حدث، لم يكن لوذريق حتى ذلك الوقت يعرف شيئاً عن نزول المسلمين الأندلس، لم يعلمه أحد من قواده بل علم من بلياس ذلك الجندي البسيط الذي نجا من فرقة بنج، وهذا يصور إلى أي مدى كانت براعة قائدنا البطل طارق بن زياد وغفلة لوذريق وجنوده..

**تحرك إسلامي:**

قبل أن يفهم لوذريق ما يحدث، ويفيق من المفاجأة الشديدة كان طارق يأمر قائداً من قادته وهو «عبدالملك بن أبي عامر المعافري» بالتحرك بمحاذات الساحل إلى الشمال، ومحاصرة قرية محصنة اسمها «قرطاجنة الجزيرة» تقع على مدخل خليج جبل طارق، وذهب عبدالملك بجزء من الجيش حيث أمره طارق، وفوجئ أهل الجزيرة بهجوم المسلمين عليهم، فلم يستطيعوا تمالك أنفسهم، وكانت الجزيرة الخضراء والمنطقة التي تقع حولها يحكمها «تُدمير» بأمر لوذريق، وراح تُدمير يستنجد بينما راحت قوات عبدالملك

تتحرك غربًا، وتُتم فتحها لجميع مناطق قرطاجنة، وتقيم هناك قاعدة عسكرية ثابتة في مكان يواجه الجزيرة الخضراء.

**غضب لوذريق:**

غضب لوذريق غضبًا شديداً بعد أن فُوجئ بما يحدث، كأنه كان في بلد أخرى لا يعرفها، وبعد أن وجد نفسه في حال بالغ السوء، فالمسلمون في أرضه قد تملكوا بعضها، وعسكروا فيها، وأخذوا يفتحون بعض البلاد، ولا يدري ماذا سيحدث في غد، فلم ينتظر، ولم يعط الفرصة لعقله كي يراسلهم، أو يقف على حقيقة الأمر، فيعرف لماذا جاؤوا؛ وبالتالي يتخذ قراراً صحيحًا، بل تعجل، وفعل مثلما فعل حكام ظالمون من قبله، إذ أمر بأن تجمع الجيوش الكثيرة، التي تزيد على عدد جيوش المسلمين أضعافًا كثيرة وجمع القوط الغربيون جيوشًا اختلف المؤرخون في عددها حتى إن بعضهم قال مئة ألف، وذكر ابن خلدون أنها أربعون ألفاً فقط، والذي يهمنا أن عدد المسلمين كان سبعة آلاف جندي فقط؛ لذلك أسرع طارق بن زياد قبل أن يعدل من خططه العسكرية، أسرع يطلب النجدة من موسى بن نصير، ويعلمه بسير الأحداث عنده، والخطر الشديد الذي يقبل عليه جيش المسلمين، ويطلب منهم المزيد من الرجال والسلاح، فما إن وصلت كلمات طارق إلى ابن نصير حتى قام مسرعًا بجمع جنود آخرين، وجهز جيشًا

جديداً وأمره بالسير إلى الأندلس، وقد بلغ عدده خمسة آلاف جندي آخرين، وبذلك صار عدد الجيش الإسلامي اثني عشر ألف مقاتلاً، وهو عدد قليل مقارنة بجيوش القوط، ولكننا نعود إلى نقطة بالغة الأهمية تكررت مع المسلمين في فتوحات بلاد فارس، وبلاد الروم، ألم يكن المسلمون هم الأقل في اليرموك، ونهاوند، وأجنادين، والقادسية وغيرها من المعارك ورغم ذلك انتصروا؟ لأنهم لم يكونوا يحاربون بعددهم أو بسلاحهم، وإنما كانت هذه فقط هي أسباب النصر التي ينبغي على المسلمين أن يأخذوها، ويخلصوا فيها ما وسعتهم المقدرة، أما النصر نفسه فإنه كان يتنزل عليهم من الله رب العالمين، وخالق الكون كله، كان هذا كله في ذهن طارق، وهو يستعد لمقاتلة عدوه ذي العدد الكبير.

**الاستعداد للمعركة:**

واستعد الفريقان للمعركة، أما لوذريق فقد استعد لها بزيادة عدد الجنود الذين كان يجهزهم لحرب المسلمين، كي يعود إليه ملكه الذي لم يهتم من قبل في أي طريق يسير كي يصل إليه، ولم يحزنه أن ملكه قد تحقق على حساب شعبه أو على حساب المعارك الشديدة التي اشتدت بين أبناء بلده.

أما طارق فقد استعد للمعركة بتخطيط جيد على أرض الواقع، ومن

قبله تسلح بالإيمان الشديد وقد جهز المقاتلين، واطمأن على أسلحتهم وعلى معنوياتهم القتالية وإيمانهم الشديد.

**الخطبة وحرق السفن اللذان نسبا إلى ابن زياد:**

وفي مجال إعداد جيش المسلمين لقتال عدوه نسبت إلى ابن زياد مقولة في الجيش، قال بعض المؤرخين: إنه ذكرها قبل أن يتحرك، وقال الآخرون: إنه قالها كي يحمس الجنود في منتصف المعركة، وفيها ذكر أنه لا طريق لهم، فالبحر خلفهم والعدو أمامهم، وليس لهم من طريق إلا الصبر وقبله الصدق، وهي معانٍ عظيمة، ولكن الكلمات التي ذكرها بعض المؤرخين المتأخرين لا يمكن أن يقولها قائد مسلم عظيم مثل ابن زياد؛ ولذلك تشكك كثير من المؤرخين الصادقين في نسبة تلك الخطبة إليه، وقالوا إنها ليست له، ولذلك فلن نوردها هنا، وكذلك نسب البعض إليه قيامه بحرق السفن التي أوصلت المسلمين إلى البر الآخر إلى بلاد الأندلس كي يقطع أي أمل لديهم في إمكانية العودة، ويجعلهم يقاتلون، وفي أنفسهم شيء واحد: القضاء على عدوهم.

وأمر حرق السفن هذا وقيام طارق به مشكوك فيه تمامًا، مثل أمر الخطبة وقد تشكك كتّاب التاريخ الأندلسي من المؤرخين في صحة هذا الموقف وأرجعوا ذلك إلى عدة عوامل:

أولاً: أن ملكية هذه السفن تعود إلى يوليان، فإن كان للمسلمين نصيب فيها فهو القليل الذي تم تصنيعه في دار صناعة السفن في تونس، فكيف يمكن لطارق بن زياد القائد العسكري المسلم الذي يعرف حقوق الآخرين جيداً، ويحافظ على أدائها أن يقوم بحرق سفن أغلبها لا يملكه.

ثانيًا: أن ابن زياد قائد غير مندفع مثل لوذريق وغيره من القادة الذين لا يحسنون التفكير، فهو سوف يحتاج هذه السفن بعد قليل، سوف يحتاجها لتصله مع بلاد المغرب حيث يمكن للمسلمين أن يصلوا إليه، ويعطوه المساعدات، والقوات التي تمكنه من تحقيق النصر الذي يريده.

والحقيقة أن طارقًا وجنده من المسلمين لم يكونوا يحتاجون إلى مثل هذا العمل كي يستبسلوا في قتال أعدائهم، فإن الدافع لديهم كان قويًّا؛ لأنه يتعلق بقوة العقيدة التي كانت تملأ أنفسهم جميعًا. ذلك كله زيادة على أن تلك الرواية لم تدون إلا في القرن الخامس الهجري، أي: بعد ثلاثمائة عام من وقوع هذه الأحداث مما يشكك في صحتها.

**المعركة:**

بعد مرور ثلاثة وثمانين يومًا من نزول طارق وجيشه على جبل الفتح على وادي نهر «لكة» أو وادي الطين كما كان يطلق عليه نظراً لقلة مياهه

وكثرة طينه، بالقرب من مدينة شذونة التقى الجيشان في مكان يقال له: «البحيرة»

ووقف جيش المسلمين مستعداً تمام الاستعداد أمام جيش عدوه، ولكن المعركة لم تبدأ على الفور؛ ذلك أنه كان هناك نهر يفصل بينهما، واستمر الحال هكذا ثلاثة أيام، الجيشان أمام بعضهما لا يستطيعان القتال أو بدء الحرب لوجود النهر؛ ولذلك انشغلا بالمناوشات وهي ما يسبق المعركة من تراشق بالسهام، أو ضرب النبال، بحيث لا يكون الفريقان في حالة سلم، ولكن الحرب الحقيقية لم تكن قد بدأت بعد.

وفي اليوم الرابع بدأت المعركة وتداخل الجيشان في معركة فاصلة استمرت عدة أيام، أما لوذريق فقد حاول الظهور أمام جنوده بمظهر الملك الذي يلبس الملابس الفاخرة، الجالس فوق عرش تجره الخيل التي تزينت بالمجوهرات، والأحجار الكريمة، حتى إن سروجها قد احتوت على الدُّر والياقوت والزبرجد، لقد أعمى الغرور هذا القائد عن رؤية الحقيقة، وخيل إليه أن المسلمين حينما سيرون مظاهر العزة التي يحيط نفسه بها سوف ينشغلون بها عن قتال جيشه، هذا القائد لم يعرف المكان الحقيقي الذي ذهب إليه منذ البداية، لم يكن يعرف أنه ذاهب إلى ميدان معركة سوف يكون القتال فيه مريراً وشديداً، وأنه غير ذاهب إلى نزهة، سوف يتمايل

فيها على خطوات خيله، ويسير في خيلاء وتكبر، لقد فقد هذا الرجل اتزانه حتى إن كتاب التاريخ الغربي من المؤرخين غير المسلمين قد تهكموا بل وسخروا منه وبخاصة «كيبون» الذي قال عنه: إن مؤسس دولة القوط ليخجل حينما يرى خلفه لوذريق متوجًا باللآلئ متشحًا بالحرير والذهب، ومضطجعًا على هودج من العاج..

وهكذا بهذا الشكل ذهب لوذريق إلى ميدان المعركة.

**كيف كان حال جيش لوذريق:**

هذا عن حال ملك القوط وقائدهم لوذريق، وعن الطريقة التي ذهب بها إلى ميدان المعركة، فماذا عن حال جيشه؟ وهل أعد هذا الرجل جيشه إعدادًا صحيحًا، وجهز للحرب ثم استراح على العرش، وجعل الخيل تجره إلى ميدان المعركة؟ لو أنه فعل هذا فربما كان الأمر مقبولاً بعض الشيء، لكن الحقيقة هي أنه لم يفعل شيئًا من ذلك، فلقد سار لوذريق بجيش كثير العدد، معتمدًا على كثرته فقط، بلا خطة واضحة أمامهم ولا نظام يجمعهم.

**نظام جيش المسلمين:**

هذا في الوقت الذي كان فيه طارق بن زياد قد نظم جيشه تنظيمًا

شديداً، واعتمد على خطة واضحة تقتضي أن يضغط المسلمون بشدة على فرق الجيش التي في يمين الجيش الأندلسي ويساره، حتى إذا ما انهزمت هذه الفرق انكشف قلب الجيش، أي: ظهر للمسلمين، ولم يستطع المقاتلون الذين في منتصف الجيش الدفاع عن أنفسهم.

وبالفعل نفذ الجنود المسلمين تفاصيل الخطة، وأظهر مقاتلوا القوط في البداية قدرة على المقاومة، وثبتوا في أماكنهم أمام هجوم المسلمين الضاغط عليهم، وهكذا بدأت المعركة شديدة جداً فالمسلمون الذين لا يزيدون على اثني عشر ألف مقاتل يقابلون جيشاً يزيد على عددهم عدة مرات.

وبعد قليل لم يستطع جيش القوط الثبات، أمام هجوم المسلمين الكاسح، واستبسال جنودهم في القتال، وسرعتهم، وتنظيمهم لذا لم تستطع فرق الميمنة والميسرة الثبات، وقد كان يقودهما «شبشرت» و«آبه» ابنا غيطشة.

**نصر مبين:**

استمرت المعركة ثماني ليالٍ، وعندما انهزمت الميسرة والميمنة وصار طريق المسلمين إلى قلب الجيش واضحاً شديد السهولة، وانهار خط دفاع ملك القوط، فتوزعوا آلافاً في كل ناحية، وصار المسلمون يسيرون وراءهم،

فأعملوا في بقاياهم القتل، ولم ينج منهم إلا القليل، حتى إنهم يرون أن المسلمين ظلوا وراءهم يقاتلونهم ثلاثة أيام.

أما عن خيولهم بما فيها ذلك الذي كان ملكهم يفتخر به فقد غنمها المسلمون جميعًا، حتى صار القوط لا يسيرون إلا على أقدامهم.

**هرب لوذريق:**

أما لوذريق فلم يره أحد أثناء هزيمة جيشه، والواضح أنه عندما تأكد من الهزيمة تخلى عن جميع مظاهر الملك والنعيم التي كان يحيط بها نفسه، ولأنه لا يقاتل عن مبدأ وغير حريص على أرواح جنوده، ولا يعرف له غاية في الحياة، فلقد تخلص من ثيابه وفرسه وتنكر حتى يستطيع الهرب، وحتى لا يعرفه أحد.

**قيمة النصر في معركة وادي لكة:**

كانت هذه المعركة هي التي وضعت الأساس المتين لوجود المسلمين في الأندلس، فقد كانت هي البداية القوية لهم، والمواجهة الحقيقية مع جيوش لوذريق الذي لم يُر بعد ذلك، لم تكن قيمة المعركة في هذا فحسب، وإنما امتدت إلى كونها نقطة الانطلاق، يتحرك المسلمون من فرحتهم الشديدة بهذا النصر الذي أنعم الله عليهم به، ومن الموقع الذي صار لهم لا لكي

يكتفوا بما حققوا ولكن لكي يستمروا في بطولاتهم، ولتستمر معاركهم في سبيل نشر دين الله في الأرض.

**المعركة القادمة:**

بعد تحقيق نصر وادي «لكة» لم يضيع طارق الفاتح المسلم وقته، فهو يدرك أن الوقت عنصر مهم من عناصر المعركة، وأنه لو تراخى وانتظر فلربما استطاع العدو أن يلتقط أنفاسه، وبالتالي يعاود الهجوم عليه، ثم إن طارقًا يريد أن يتم الله نصره عليه بفتح المدن والمراكز الأندلسية القريبة أولاً، ثم البعيدة بعد ذلك.

وهكذا تحرك طارق، وبدأ بمدينة شذونة، وما إن علم القوط بمسيره إليها حتى أغلقوا جميع أبواب المدينة، وتحصنوا بداخلها، رافضين الخروج لقتال المسلمين، ورافضين الاستسلام، فما كان من طارق إلا أن شدد حصاره عليها، ثم أخذ يفكر بعقلية الفاتح المحارب صاحب الخبرة الكبيرة في تحقيق النصر، حتى اختار أماكن محددة تصلح لأن يفتح أجزاءها، ويفلح في العبور منها إلى داخل المدينة، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة، ولكن جنود المسلمين قاموا بها على ما فيها من خطورة إن أحس العدو بهم، أسرعوا في عملهم، متوكلين على الله، ونفذوا أوامر قائدهم.

وكان الله في عونهم فنجحت الخطة، وبعد أن كانت المدينة مغلقة الأسوار والأبواب أمامهم استطاعوا أن يدخلوها، ويفاجئوا أهلها وتحققت للمسلمين السيطرة الكاملة عليها.

لم ينتظر طارق إلا لكي يخطط أمور إدارة شذونة، لكي يسير إلى بلدة أخرى هي مورور، ولكنه قبل أن يسير تأكد من خضوع شذونه الكامل للمسلمين، إنه لا يريد أن يمضي في معاركه ثم يكتشف أن شذونة التي تعب هو وجنوده حتى أتم الله لهم فتحها قد استطاع القوط السيطرة عليها؛ لذا نظم أمور شذونة جيداً ثم سار إلى مورور، واستطاع السيطرة عليها، أما قرمونة التي كانت من أكثر مدن الأندلس قوة بالسور الذي كان حولها، فإنها لم تأخذ وقتًا طويلاً أمام طارق بن زياد وجيش المسلمين.

**إلى أشبيلية:**

سار طارق بجنوده بسرعة إلى أعظم قواعد الأندلس، إلى أشبيلية فحاصرها بجيشه، ولكن الأيام أخذت تمر، أسبوعًا بعد أسبوع، والمقاتلون المسلمون منتشرون خلف أسوار المدينة لا يستطيعون دخولها حتى مر شهر وهم على هذه الحالة.

وكان الفرج من عند الله تعالى، إذ إن أهل إشبيلية أنفسهم قد فكروا فيما يحدث، وكأنهم أيقنوا أن في دخول المسلمين لمدينتهم صلحًا أفضل، ولقد تدبروا طويلاً فيما يبدو، إذ إن مدة حصار المسلمين لهم امتدت شهرًا، ولقد رأوا أن في سيطرة المسلمين على مدينتهم الرحمة لهم؛ لذا أرسلوا إلى طارق، وطلبوا الصلح موافقين على دفع الجزية، مقابل حماية المسلمين لبلدهم، وبقائهم على دينهم وعاداتهم.

**تسامح طارق:**

وتحرك طارق بجيشه نحو مدينة أندلسية جديدة، اسمها ماردة وما إن حاصر سورها حتى فوجئ بأن أهلها قد أعدوا لجنوده كمينًا، استشهد خلاله عدد من جنود المسلمين، وأخذ عدد منهم أسرى.

ولكنهم فهموا جيدًا أنه لا فائدة مما يفعلون، وأن الحل السليم لما يواجهونه من حصار المسلمين لمدينتهم هو طلب الصلح معهم تمامًا مثلما فعل أهل أشبيلية.

**جمع القوط:**

وأحس القوط أنهم في موقف صعب، وهم الذين احتلوا الأندلس منذ فترة تنعموا بخيراتها، ولم يكن يهمهم كيف يحكمون أهلها، إذ إنهم لم

يكونوا يرون أي قوة يمكن لها أن تنافسهم، زيادة على أن تهددهم إن لم يحكموا بالعدل، واليوم هم يرون المسلمين قد انتشروا في بعض بلاد الأندلس، وهم يعلمون أن المسلمين حينما يجيئون فإنهم يصطحبون معهم مبادئهم العظيمة، تلك التي علمها لهم دينهم الحكيم، أحس القوط بأن المسلمين لم ينتصروا بقوة عددهم، ولا كثرة سلاحهم، وإلا فإنهم الأكثر عدداً، والأقوى سلاحًا، والذين يعرفون المكان جيداً.

وهكذا فعل القوط الذين جمعوا ما يستطيعون من قواتهم في مدينة استجة حيث دارت معركة رهيبة بينهم وبين المسلمين، وحيث أخطؤوا الترتيب من جديد، فظنوا أن قوتهم قد تحقق النصر لهم، إلا أن الهزيمة القاسية المرة التي لحقتهم على يد المسلمين من جديد قد أنستهم أحلامهم بعد أن ذاقوا مرارة ضربات المسلمين، وكثر القتل والجرح فيهم، فاحتموا بمدينتهم، وظلوا كذلك إلى أن استطاع طارق بن زياد بعبقريته أسر حاكم المدينة وإرغامه على توقيع الصلح مع المسلمين.

**خطة جديدة:**

أعمت الهزائم المتتابعة أنظار القوط، وعقولهم، وزاد غيظهم إذ يرون المسلمين يدخلون إسبانيا، ولا يستطيعون ردهم، على الرغم من أنهم قد

علموا في معركة أستجة أن الكثرة لن تنقذهم، ولن تحقق لهم نصراً عليهم، إلا أن العناد والحقد والشر الباقي في أنفسهم كل ذلك حسّن لهم الدخول مع جند الله في معركة أخرى، وهكذا راحوا يسرعون في الهرب يريدون الوصول إلى دار مملكتهم في طليطلة، ليحتموا من المسلمين أولاً، ثم ليعودوا للمعركة الجديدة متى اكتملت قوتهم ورأوا أنهم قد بلغوا عدداً كبيراً بدؤوا الدخول في حرب جديدة مع المسلمين.

**تفريق طارق لقواته:**

أما طارق بن زياد فلقد رأى أن ظروف الحرب تقتضي عليه أن يسير إلى طليطلة مهاجماً القوط قبل أن يفكروا في مهاجمته، ولكنه رأى أن لهم قوات تتجمع في بعض المدن القريبة، وأن هذه القوات إذا ما تعداها وذهب إلى طليطلة مباشرة فلربما هاجمته من الخلف، وهو القائد الماهر الذي يحب أن يعد لكل شيء بدقة. فذهب فجهز جيشه، فعرف أن الوقت ليس في صالحه، إذ إنّ عليه التقدم واجتياز المدن «قرطبة» و«مالقة» و«غرناطة» في وقت قليل، وكذلك عليه أن يصل إلى طليطلة؛ ولذلك اتخذ طارق قراراً بتوزيع جنده، فأرسل مغيثاً الرومي وهو مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك في سبعمائة من الفرسان المسلمين إلى مدينة قرطبة التي كانت من أعظم مدن الأسبان؛ ولذلك كان حرص القوط عليها حرصاً شديداً، وتحرك الجنود

المسلمون بقيادة مغيث، حتى وصل إلى الضفة الأخرى من النهر الذي يقع عليه الوادي الكبير المقابل للمدينة، وكان عليه أن يدخلها، وهكذا راح رجاله يجتهدون، فاتصلوا بجماعة كانوا يسكنون الجزء المقابل للقنطرة التي عبرها المسلمون، وكان هؤلاء من الأيبريين سكان أسبانيا الذين جاؤوا أصلاً من بلاد الروم، وقد نجح هؤلاء الرجال المسلمون في معرفة أسرار المدينة منهم، وبالتالي سهلت لهم الخطة التي كان طارق بن زياد قد وضعها لهم قبل أن يسيروا، فبعدها صاروا يركبون السفن بهدوء، وفي بطء صاروا يعبرون نهر قرطبة ليلاً، وفي غير انتباه من الحراس تمكنوا من السيطرة على المدينة.

كان طارق قد أمر بتسيير جيش آخر إلى البلاد الواقعة حول مالقة، حيث استطاع أن يقتحم أسوارها الحصينة، ويستولي عليها دون مشقة، وكان هناك جيش ثالث توجه إلى منطقة البيرة، وفتحها.

obeikandl.com

# الفصل الرابع

# إلى طليطلة

**تحرك جديد لطارق بن زياد:**

كانت أخبار النجاح التي حققتها جيوش المسلمين الصغيرة التي حركها طارق تصل إليه، فيزداد حمده لله على ما أنعم عليه، حتى إذا أتمت مهمتها كان عليه أن يتحرك بنفسه للمهمة الخطيرة، إذ إن عليه أن يهاجم منطقة «جيان» تمهيداً لوصوله إلى «طليطلة».

كانت المهمة صعبة؛ لأنه ينبغي عليه أن يتحرك بجنوده عابراً هضاب الأندلس، وجبال سيرامورينا وعبر نهر «الوادي الكبير» عند منطقة منجبار وسار في الطريق الروماني القديم الذي كان يُطلق عليه «وادي هانيبال» ماراً بمدينة جيان، وقد نجح في دخول المدينة فواصل السير نحو هدفه طليطلة، وأسرع إلى طليطلة قبل أن يكمل القوط استعداداتهم لمواجهته، لقد أحسن طارق التخطيط، حينما سار بنفسه، بعد ما مهد الطريق بجيوش صغيرة قادها الذين يثق بهم من قواده، وكان لسرعة تخطيطه وسرعة مسيره تحقيق الهدف المنشود بطريقة رائعة، فما إن اقترب ابن زياد من طليطلة، حتى وجدها شبه خالية، ليس فيها إلا اليهود، ومجموعة قليلة من الناس، فنفذت

قواته إلى داخل المدينة، وانتشرت فيها دون أي عناء، ولم يكن هناك من القوط ما يشكل خطرًا على جيش المسلمين.

سُرَّ طارق سرورًا كبيرًا بالنصر الجديد الذي حققه الله على يديه، وأحسن معاملة أهل المدينة، وترك لهم حرياتهم كاملة، أما عن حاكمها، فقد فرَّ بقواته إلى مدينة خلف الجبل.

**خطوة جديدة:**

لم ير طارق في الانتصارات المتلاحقة التي حققها سببًا للراحة بعض الوقت، وإنما رأى الاستمرار في خطته التي تستوجب طَرْقَ الحديد وهو ساخن، فما إن تحقق فتح المدينة حتى انصرف هو ومجموعة من جنده اختارها بعناية لاستكمال السيطرة على المواقع الأخرى، وكان من خطته أيضًا تأمين المناطق القريبة من طليطلة وبخاصة الواقعة في جهة الشمال منها، وهي مناطق قريبة، وتجمعت فيها بعض من قوات القوط.

وبسرعة المجاهد الذي يتقن عمله، ويدرك خطورة عدم السرعة في السيطرة على المناطق القريبة سار طارق بجيشه في طريق وادي الحجارة، مارًّا بالمناطق الجبلية من ثغر أطلق عليه اسمه فيما بعد «فج طارق»، حيث أنعم الله عليه بفتح المناطق القريبة، وفتح مدينة أطلق العرب عليها مدينة المائدة،

حيث وجدوا فيها مائدة توقعوا أن تكون مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وقد زاد ذلك من حسرة القوط؛ إذ إن تلك المائدة كانت مصنوعة من الزبرجد الخالص، وهو أحد المعادن النفيسة، وكذلك فلقد كانت لها قداستها لديهم.

**العودة:**

وبعد أن دوخ طارق القوط في جميع الجهات المحيطة بطليطلة، وبعد أن حقق عدة انتصارات بالغة الأهمية، وعلَّم فيها القوط درسًا قاسيًا عاد إلى طليطلة لتقلب ظروف المناخ وحلول الشتاء في هذه البلاد التي لا تساعد ظروف المناخ فيها على استمرار تقدمه، زيادة على التعب الشديد الذي أصاب جنوده، فرأى أن يعطيهم فرصة للراحة بعض الوقت.

**تواضع وطاعة:**

لم تكن هذه الانتصارات تزيد طارقًا إلا طاعة لقائده موسى بن نصير الذي كان بدوره يعلم الخليفة عبدالملك بن مروان بالخطوات كلها، وعندما أحس طارق بأن قواته قد نقصت نقصًا شديدًا بسبب استشهاد جنده، وتوزيع الآخرين على المدن المختلفة لحماية جيش المسلمين بحيث لا يُهاجم من خلفه، هنا اتخذ ابن نصير قراراً جريئًا لكنه غير متسرع، إذ حسب له،

وأعد له جيداً، لقد قرر موسى بن نصير أن يعبر بنفسه لمناصرة ومساعدة طارق بن زياد، وبالفعل عبر من المغرب إلى الأندلس، في جمع كبير من الجنود، وكان شديد الحيطة؛ إذ لم يدخل من نفس المكان الذي دخل منه طارق في بداية فتحه لبلاد الأندلس، وإنما دخل من مكان آخر هو المكان الذي سُمي فيما بعد بجبل موسى.

**لقاء:**

لقد زادت انتصارات طارق من غضب أصحاب القلوب المليئة بالشر عليه، حتى إن بعض كتاب التاريخ من الغربيين راحوا يفترون عليه بالظلم والباطل، ولكن أعماله العظيمة كانت أبلغ دليل على جهاده العظيم، وإيمانه القوي بالله، وتم اللقاء بين طارق وقائده موسى بن نصير، وفي البداية وافق القائد على أن يكون تابعًا لطارق يسير بجيشه خلف جيشه، وهو أعظم رد على الذين يقولون: إن هناك خلافًا قد نشأ بينهما، وبعد فترة قليلة قام ابن نصير بنفسه بفتح المدن الواقعة غرب الأندلس مثل: إشبيلية، وماردة، وباجه، طبقًا للخطة التي رسمها طارق بن زياد.

وبدأ القوط يفيقون ويعدون قواتهما، فما إن علم موسى بن نصير بذلك حتى طلب من طارق بن زياد أن يلتقي به، ويوحدا جيشيهما لاستكمال

فتح البلاد، فالتقيا في مكان اختلف المؤرخون في تحديده، واتفقا على تنفيذ خطة عسكرية واحدة تقتضي أن يسيرا في الطريق الروماني القديم عبر جبال سيرادي فرانثيا، وراحا يقتحمان تجمعات القوط التي تقف في طريقهما.

**الخطر الجديد:**

ولكن عبور جيش المسلمين من هذا الطريق الوعر سبب له خطورة جديدة، إذ إن لوذريق رآها فرصة للهجوم عليه وهزيمته، إذ هجم بقواته على جيشي موسى بن نصير، وطارق بن زياد، في مكان يُسمى السواقي، أو السواني، وقد أطلقت عليهما هذا الاسم نظراً لوقوعها بالقرب من نهر فاملوت، الذي تغير اسمه في نهاية المعركة.

وكانت نتيجة المعركة على غير ما توقع لوذريق تماماً، إذ إن خبرة طارق في قتال القوط قد أفادت جيش المسلمين الذي لم تكن قوى لوذريق العقلية قد أفهمته أن هذا الجيش مستعد للدخول في معركة مع عدوه في أي وقت، وأن جنوده من المجاهدين مستعدون للموت، ويتمنون ذلك في كل وقت، وهدفهم الشهادة في سبيل الله، وهكذا دارت المعركة عليه، فتمزقت قواته، وذاق الهزيمة المرة، وكانت جرأته في قتال المسلمين سبباً في وفاته في وادي الطين، وسمي النهر الذي وقعت المعركة بالقرب منه «نهر موسى».

**بقية الانتصارات:**

كان من الطبيعي أن يساعد هذا الانتصار التارخي الأخير في فرض المسلمين سيطرتهم في المناطق المجاورة، وأن يحفظ التاريخ هذا الانتصار وبصمة موسى بن نصير عليه، وعلى المناطق التي سار إليها حتى وصل إلى ما يُعرف بـ «فج موسى» ثم تواصل القوات المسلمة هجومها نحو الشمال الشرقي من الأندلس عابرة ولاية «أراكون» وهو الثغر الأعلى فيها، وتتمكن قوات المسلمين من الدخول في نواحيه «سرقسطة» و«طوكسونة» و«برشلونة»، فتوطد النفوذ الإسلامي، ورأى القائدان أن يسير كل منهما في ناحية لاستكمال فتح البلاد.

سار طارق بن زياد نحو الشرق ليخمد مقاومة ما تبقى من القوط الذين استطاعوا الهرب إلى تلك الناحية، وسار موسى بن نصير شمالاً مارًّا بجبال الممرات، واستمر تقدمهما.

وكان الوليد بن عبدالملك الخليفة المسلم قد علم بما حققه المسلمون من انتصارات، ولكنه رأى أنهم يسيرون في مجاهل بلاد الأندلس؛ لذلك خاف على أرواح الجند وأرسل إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد يستدعيهما إليه من ساحة المعركة.

وعلى الرغم من هذا الاستدعاء فإن القائدين المسلمين سارا في فتوحاتهما، ولكن بسرعة أكبر، وراح ابن نصير يفتح مدينة «سرقسطة» بينما كان طارق بن زياد يقود جيشه لتحرير منطقة الثغر الأعلى الأندلسي، حيث نشط في افتتاح قصبة سرقسطة التي كانت تُسمى بالمدينة البيضاء.

وعلى الرغم من ظروف السرعة وشدة الموقف إلا أن ابن زياد المسلم الشديد الإيمان افتتحها دون قتال، وأمَّن أهلها، وأمر بإنشاء مسجد فيها كان بمنزلة منارة للإسلام لمدة قرون بعد هذا الفتح.

واستمرت فتوحات القائدين العظيمين حتى وصلت إلى بلاد غالة (فرنسا) الآن، وكانت خطة القائدين تقوم على تشتيت قوات القوط، ومنع تجمعها مع بعضها.

**صفات طارق بن زياد في ساحة المعركة:**

كان طارق يجمع بين ناحيتين: معرفته الجيدة بالخطط العسكرية المناسبة لطبيعة كل بلد ينوي فتحه، وفي الوقت نفسه معرفته العميقة بطبيعة الجند الذين يقودهم، فكما أنه كان يعرف جيداً طبيعة الخطط المناسبة للمناطق التي ينوي نشر الإسلام فيها كما كان يعرف أيضًا كيف يؤثر في جنده، ويجعلهم يقبلون على الفتح بقلوب متحمسة لتحقيق نصر الله مهما كانت

الصعوبات والمتاعب التي ستقابلهم.

كذلك كان طارق يعرف كيف يتحكم في قواته، ويوزعهم بعناية شديدة على المناطق التي يريد الانتشار فيها مع قلة تلك القوات، وكذلك أيضًا كان ابن زياد ينطلق من قواعد شديدة الأمن إذ إنه لم يكن يترك الفرصة لعدوه كي يلتف حوله، ويعود لمهاجمته من خلفه.

obeikandl.com

# الفصل الأخير

## العودة

**ضرورة العودة:**

جاء مبعوث الخليفة الوليد بن عبدالملك إلى موسى بن نصير، وطارق بن زياد للمرة الثانية يعلمهما بضرورة العودة للقائه، فالتقى بموسى في ليون من بلاد غالة التي هي فرنسا اليوم، وهناك قابل طارق بن زياد عائداً من بلد اسمه اشترقة وساروا جميعًا في طريقهم إلى طليطلة، ثم مضوا بسرعة حتى دخلوا طليطلة، وأسرعوا مرة أخرى إلى قرطبة حيث قابلوا مجموعة من كبار الجند، ليسيروا أيضًا إلى إشبيلية، وأجرى ابن نصير مباحثاته وترتيباته اللازمة لتنظيم حكومة الأندلس، وجعل إشبيلية عاصمة لها.

**طريق العودة:**

وفي عام (٩٥هـ) ركبوا جميعًا البحر، ومعهم يوليان، ووصلوا إلى مصر واستطاعوا الوصول إلى دمشق، ولكن الخليفة الوليد كان يعاني من مرضه الأخير، فتوفاه الله بعد أيام من وصولهم، وتولى الخلافة سليمان بن عبدالملك الذي أحسن استقبال طارق بن زياد في قصره، قصر الخلافة، وأحسن الخليفة إليه نتيجة المجهود والكفاءة التي أظهرها في فتح بلاد الأندلس.

أما موسى بن نصير فقد عاتبه الخليفة بعض الشيء ثم قربه إليه مرة أخرى، حتى جعله ملازمًا له يخرجان معًا للصيد.

وكان من نية سليمان بن عبدالملك الخليفة أن يجعل طارق بن زياد قائداً للفتح في بلاد الأندلس مكان موسى بن نصير، وترجح المصادر التاريخية أن ابن زياد قد عاد بالفعل إلى بلاد الأندلس.

**النهاية:**

كيف كانت أيام طارق بن زياد الأخيرة؟ هذا الذي قصرت في نقله لنا المراجع التارخية، وربما كان انشغال الكتاب بتتبع معاركه المتتالية، وما حققه من انتصارات عدة ربما كان ذلك سببًا لانشغالهم عن ذكر أيامه الأخيرة.

وفي الحقيقة فإن الانتصارات المتوالية التي حققها طارق كانت كافية لأن يسطر التاريخ اسمه بحروف من نور بين أبطاله العظام الذين استطاعوا في فترة قليلة تحقيق انتصارات عظيمة، وأي انتصارات؟ إنها تلك الانتصارات التي جعلت الإسلام ينتشر في بلاد الأندلس لعدة قرون من الزمان، ويكفي طارق بن زياد أن المضيق الذي اختاره للعبور وهو أول قطعة أرض عبرت فوقها قدماه أصبحت هي «جبل طارق» أو «جبر التار» كما أطلق عليه غير العرب، هذا عن جزائه في الدنيا، أما في الآخرة، فهذا علمه عند الله رحمه الله تعالى نظير ما قدم للمسلمين من جهود عظيمة، وألحقنا به على خير.

# المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| تاريخ مشرف منذ الصغر | ٥ |
| ابن زياد يعبر المضيق | ١٣ |
| من نجاح إلى آخر | ٢٣ |
| إلى طليطلة | ٤٣ |
| العودة | ٥١ |


obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging
Tel: (01) 265 1144

obeikandl.com